الرواية الوجودية :

ليس من شك في ان القارئ العربي الذي اطلع على روايات سارتر او كامو او سيمون دي بوفوار يعلم تمام العلم انه بإزاء نوع جديد من الرواية غير ما اعتاد ان يقرأه لدى روائيين آخرين من امثال فلوبير او بلزاك او اميل زولا وغيرهم . ذلك ان الرواية الوجودية لم تعد تقف من الإنسان موقفا موضوعيا على نحو ما كان يفعل فلوبير وأمثاله من الروائيين السالفي الذكر ، بل اصبحت تقدم لنا عن الإنسان صورة واقعية ملموسة ، تصوره لنا في اطاره الإجتماعي المبتذل ، او تصفه لنا في جوه العائلي الإعتيادي ، فتكشف لنا عن عمق اهوائه ورذائله وشتى مظاهر نقصه ، وتجرده من وظائفه الإجتماعية لكي تضعه وجها لوجه امامنا على نحو ما هو في صميم علاقاته بذاته ، وبالعالم ، وبغيره من ابناء هذا العالم . ولعل هذا هو ما ارادت سيمون دي بوفوار ان تعبر عنه حينما كتبت تقول : ان لكل تجربة انسانية بعدا سيكولوجيا خاصا ، ولكن حين نجد البحث النظري يستخلص تلك المعاني محاولا دائما ان يكون منها مركبا عقليا مجردا ، نرى الروائي يعبر عنها تعبيرا حيا بأن يضعها في سياقها الفردي الواقعي . ومن هنا فإن الروائي الأصيل قد يستطيع ان يكشف لنا عن حقائق جديدة لا يستطيع اي باحث نظري في عصره ان يشير ضمنا أو صراحة الى اي معادل تجريدي لها .

والواقع ان الوجودية ان هي الا جهد يراد به التوفيق بين الموضوعي والذاتي ، بين المطلق والنسبي ، بين اللازمني والتاريخي ، بين العمق الفكري والثقل المادي! ...الخ . والوجودية ايضا محاولة شاقة من اجل ادراك الماهية في صميم الوجود ، والكشف عن معنى الحياة من خلال المواقف والأحداث . فليس بدعا ان ترحب بالرواية ، وتصطنع الإسلوب الروائي ، مادامت الرواية هي التي تسمح للفيلسوف بأن يقف على الإنبثاق الأصلي للوجود في حقيقته الكاملة النوعية التاريخية . حقا ان تمة فلاسفة يزدرون اسلوب التعبير الروائي ، ولا يرون موضعا للمزج بين الفلسفة والقصة ، ولكن هؤلاء انما هم الفلاسفة الذين يفصلون الماهية عن الوجود ، ويحتقرون المظهر بوصفه دون الحقيقة المستترة ! وأما اذا عرفنا ان المظهر هو نفسه حقيقة وأن الوجود انما هو حامل الماهية ، وانه لا سبيل الى فصل الإبتسامة عن الوجه الباسم ، ومعنى الحدث عن نفسه ، فهنالك لابد لعياننا الفلسفي من ان يعبر عن نفسه من خلال اللمع الحسية والبوارق المادية التي تنبعث من العالم الأرضي نفسه . ومن فقد التجأ الفكر الوجودي الى الروايات والقصص والمسرحيات ، ليلتمس فيها تعبيرا حيا خصبا عن شتى خبرات الإنسان الوجودية بوصفه كائنا ميتافيزيقيا يحيا في العالم ومع الآخرين .

ولا تنحصر مهمة الروائي الوجودي في استغلال بعض الحقائق السابقة المحصلة فلسفيا ، في مضمار العمل الأدبي او الإنتاج الفني ، وانما تنحصر مهمته في الكشف عن مظهر معين من مظاهر التجربة الميتافيزيقية ، ، الا وهو ذلك المظهر الذي لا سبيل الى تبيانه على اي نحو آخر ، نظرا لما يتسم به من طابع ذاتي جزئي ، درامي . ومادامت الحقيقة – فيما يرى الوجوديون- لا تدرك عن طريق العقل وحده ، فإن اي وصف عقلي لا يمكن ان يقدم لنا عن الواقع صورة صادقة مكافئة . ولهذا يحاول الروائيون الوجوديون ان يعبروا عن الواقع في شتى مظاهره ، على نحو ما ينكشف لهم من خلال تلك العلاقة الحية التي تربط الإنسان بالعالم ، وهي تلك العلاقة التي يقولون عنها انها في صميمها فعل وعاطفة قبل ان تكون فكرا وتصورا . وهم حين يصطنعون الرواية للتعبير عن الواقع على هذا النحو من العمق والنفاذ والنصاعة ، فإنهم لا يسترسلون في شرح تعليمي يقتل الرواية او يحيلها الى مجرد محاضرة فلسفية ، بل هم يكيفون الملاحظات الذاتية مع اللقطات الموضوعية ، ويحققون التكامل بين تحليل العواطف وتوازن الأحداث اوالمواقف . وعلى حين ان بعض دعاة الأدب الموجه قد يتخذون من الرواية مجرد ذريعة او مناسبة لتقديم بعض الدعاوى الفكرية او القضايا الفلسفية ، نجد ان جماعة الروائيين الوجوديين يعمقون احداث الحياة اليومية على مستوى ميتافيزيقي ، فينفذون الى جذور الوجود الإنساني ، دون التوقف عند حدود المناقشات الفكرية الخالصة او المساجلات الجدلية المحضة .

صحيح ان رواية الغريب لالبير كامو هي تصوير روائي لفلسفته العبثية ، وصحيح ان روايته الطاعون تعرض لنا في ثنايا احداثها الدرامية قضية الإنسان المتمرد . ولكن من المؤكد ان كامو في كلتا الروايتين انما يقدم لنا عملا فنيا نستمتع به ونستغرق فيه ، دون ان يحشد في هذا العمل ادلة عقلية او براهين فلسفية .

الرواية الوجودية في صميمها تعبير عن البعد الميتافيزيقي الذي يتحرك عبره الموجود البشري ، ولكن من المؤكد ان هذا البعد الميافيزيقي انما ينكشف في الرواية الوجودية من خلال مواقف متعارضة واحداث متشابكة ، ومشاعر متناقضة. وليس من الغريب ان تكون ثمة رواية سارترية ، مادامت وجودية سارتر هي في صميمها ، فلسفة تؤكد بكل قوة ما للتجربة من طابع ذاتي ، جزئي ، عيني ، درامي ، تاريخي ، زماني .

واذا كان من المستحيل ان نتصور رواية ارسطاطالية او اسبينوزية او ليبنتسية ، فذلك لأنه ليس للذاتية او الزمانية اي موضع في مذهب ارسطو او اسبينوزا او ليبنتس . واما عند سارتر ، فإننا دائما بصدد مواقف ميتافيزيقية ينكشف من خلالها

قلق الأنسان ، وعبث الحياة ، وصراع الحريات ، وجزع الموجود البشري من الموت ، وحنينه الى المطلق .

وحين يحاول الفيلسوف الوجودي ان يعبر عن هذه المواقف الميتافيزيقية ، فإنه لا يقسرها على الأحداث قسرا ، كما انه لا يسقطها على الشخصيات اسقاطا ، بل هو يضعها في سياقها الواقعي الجزئي ، ويدعها تنطق بلغتها الخاصة من خلال اللقطات الموضوعية . ومن هنا فإن ابطال سارتر او كامو او سيمون دي بوفوار ليسوا بالضرورة فلاسفة او مفكرين او اهل جدل ، بل هم اولا وبالذات موجودات بشرية تواجه مصيرها ، ويعمل كل منها على تعميق كل قضية تعترضه ، مدركا في الوقت نفسه انه ملتزم امام نفسه ، وأمام العالم ، وأمام الآخرين .